

مئوية مجلة "العرفان" (1909 - 2009)

أحمد عارف الزين، شهادة من صيدا التي لن تنسى ماضيها

العرفان بالجميل

في أيار من عام 2004 إنتخبت نائباً لرئيس بلدية صيدا، وأخذت على عاتقي أيضاً رئاسة اللجنة الثقافية التي كانت تضم أعضاء مشهودا لهم بالعلم والإخلاص والكفاءة. ما هي علاقة هذا الأمر بالشيخ أحمد عارف الزين ومؤسسة "العرفان"؟ نعم، يوجد علاقة وفي ما يلي توضيح حولها.

منذ بداية عمل اللجنة جرى الإتفاق على مبدأ الفعل الذي ستقوم به وهو ذو خطين متوازيين: إنشاء مؤسسات ثقافية تبقى وتدم، وإنجاز بعض المشاريع والنشاطات الثقافية والتربوية التي يفرضها التجديد والمناسبات المقدسة. وبالفعل تتضمن برنامج العمل منذ السنة الأولى، وفي الخط الأول، إنشاء مركز ثقافي بإسم الشيخ أحمد عارف الزين في العقار الذي تشغله المطبعة حتى الآن عند المدخل الجنوبي لخان الإفرنج في ساحة باب السراي بصيدا القديمة.

وكان هاجسنا ولا يزال العمل على إبراز ما قدمه الرواد من فكر وثقافة إنطلاقاً من صيدا وعلى رأسهم الشيخ أحمد عارف الزين وذلك بقصد تنشيط الذاكرة الجماعية وإشاعة الوعي الثقافي، ووصل ما إنقطع في هذا المجال منذ زمن طويل.

وبعد موافقة المجلس البلدي على خطة العمل، والإتفاق على الخطوات التنفيذية الأولى مع الرئيس وأعضاء اللجنة الثقافية جرى الإتصال بخصوص المركز الثقافي بعائلة الشيخ أحمد عارف الزين (ابنه القاضي زيد وحفيده السيد فؤاد مدير عام المجلة) ووجدت عندها كل تشجيع، وزودت بمراجع ومستندات تعود لـ "العرفان" (...).

إلا أن الموضوع بقي على جدول أعمال اللجنة الثقافية حتى انفضاضها الاحتجاجي... واستقالتي من البلدية... على صعيد آخر وأثناء بحث تسمية الشوارع في صيدا بأسماء ذات دلالة أو حيثية معبرة كلفت بوضع معايير موضوعية لهذا الغرض وتقدمت بإقتراح لإطلاق إسم الشيخ أحمد عارف الزين على أحد شوارع صيدا، إلا أن كل ذلك بقي حبراً على ورق (...).

(...) الشعور بالخلج والحرص (...) هو الشعور الذي يخالجي، أنا ابن صيدا هنا والآن. ولكن هذا الشعور يمكن تخطيه ونحن نحتفي بمرور مئة عام على إنشاء مجلة "العرفان"، نتخطاه بالتحرك العملي والإيجابي الذي ما زال متاحاً (...). كما أدعو جميع المسؤولين والفاعليات الصيداوية بدون تحزب وبدون إستثناء إلى تأكيد المؤكد وهو أن صيدا لا تنسى ماضيها ورجالاتها وهي تعترف لهم بالجميل.

(أجزاء من مقالة أطول)

يوسف رضا الجباعي

الوقت بعنوان غامض في جانب من ساحة باب السراي يدعى "العرفان" وبالعنوان آخر (لست أدري لماذا) يدل على بيت الشيخ في حي إسكندراني.

صيда والشيخ و"العرفان" في باريس

ومرت السنون كان وعيي خلالها (1953 - 1960) يتأطر في الثالوث المقدس "الوحدة والحرية والإشتراكية". ولم يكن الشيخ جاذباً بفكره ومجلته، ولم تكن صيدا ولا القاهرة حيث درست علم الإجتماع مسرحاً لجدال حول الإهتمامات التي كانت تشغل مجلة "العرفان" (...).

في باريس حيث بدأت رحلة الدكتوراه حصل ما يستحق أن يذكر في موضوع شيخنا الجليل.

كنت قد بدأت أشق طريقني نحو ماركس والماركسية مخلفاً ورثائي الثالوث المقدس إياه، قابلت عالم الإجتماع الأشهر في السوربون جورج غورفيتش وأفصحت له عن رغبتي في تخصيص بحثي للدكتوراه عن ماركس طالبا منه النصيحة والإشراف إذا أمكن. وبعد أن شرح لي الموجبات والصعوبات نصحتني بالعدول عن هذه المغامرة، وبدراسة ظاهرة تتعلق ببلدان أو البلاد العربية مع المستشرق المعروف جاك بيرك وهكذا تحوّل تفكيري وإقتربت من واقعية معقولة. وأثناء المقابلة الأولى مع الأخير، وبعد أن عرف أنني من مدينة صيدا، إنطلق في الحديث عن الشيخ أحمد عارف الزين ومآثره العلمية ودور مجلة "العرفان". وأسّر لي أنه نزل عنده ضيفاً في الخمسينات وتعرف في تلك الأثناء عليه وعلى المدينة. وإتفقنا على أن تكون الدراسة مبدئياً عن صيدا.

وبدأت في تجميع المعلومات التي تخدم هذا الغرض. وفي هذا السياق وقعت تحت يدي في مكتبة معهد اللغات الشرقية "الموسوعة الإسلامية" وذهبت توالياً إلى "Sidon" فوجدت عنها عموداً من صفحة كبيرة لثمة عن الشيخ أحمد عارف ومجلته. وسررت بعد ذلك عندما وجدت في المكتبة ذاتها "العرفان" منذ صدورها الأول... وهكذا إطلعت عليها كاملة أو ما يقرب من ذلك فوجدتها تجول في مجالات وأفاق أوسع بكثير من المدينة موضوع الدراسة بإستثناء صفحاتها الأخيرة التي كنت أجد فيها أحياناً بعضاً من الحوادث المحلية المتفرقة. أما كتاب الشيخ عن "تاريخ صيدا" الصادر سنة 1913 فأقتنيته وقرأته في ما بعد. وهكذا تستنى لي أن أتعرف على الشيخ أحمد عارف الزين ومجلة "العرفان" وعلى مدينتي أيضاً تعرفاً علمياً في باريس.

بعد أن اطلعت على دراسة السيدة رغداء النحاس عن أحمد عارف الزين: "الشيخ الحدائي من جبل عامل" ("النهار" في 26 و 27 كانون الثاني 2009)، ودراسة الدكتور طريف الخالدي وعنوانها: "مجلة العرفان ومؤسسها في الدائرتين الصغرى والكبرى" ("النهار" في 8 و 9 شباط 2008)، وهما وثيقتان على درجة عالية من العلمية والموضوعية وغنى مميز بالمعلومات والتحليل الخّ عليّ واجب الوفاء للرجل الذي أعطى الكثير لمدينتي صيدا، ورأيت نفسي أندفع لتحرير شهادة شخصية تمتزج فيها مشاعر الإعجاب بعطاءه والتقصير من قبلنا حياله وحيال جهوده في المجالات الفكرية والعلمية، الصحافية والسياسية، الوطنية والقومية، الدينية والأخلاقية، وأيضاً حيال الإحتفال بذكراه وتخليد هذه الذكرى.

سأترك مهمة الخوض في ما أضافه الشيخ في المجالات المذكورة آنفاً عرضاً وتحليلاً وإنتقاداً، وسأكتفي بهذه العجالة لعلها تحقق بعض الفائدة، وتحرك بعض النفوس.

في أوائل الخمسينات كانت كلية المقاصد الخيرية الإسلامية في صيدا "المنتدى الثقافي" المنفتح على أفاق ثقافية ووطنية شاسعة زاد في تألقه نشاط المرحوم الأستاذ شفيق النقاش، مدير الكلية الآتي من بيروت، بعلمه التربوي والأدبي ووطنيته وعروبته الصافيتين. كانت المقاصد منبرا يعتليه الصفاة من الأدباء وحاملي لواء الحرية والإستقلال.

كان لي الحظ أن أكون في ذلك الزمن الجميل، اليافع، الشاهد، التلميذ الذي يبحث عن هوية ومعرفة وإطلاع على شؤون النفس والحياة.

وفي كل نشاط كان يلفتني ذلك الشيخ الساهم النحيل، الوقور. كان الشيخ أحمد عارف الزين عزيزاً في الكلية وأهلها، يتصدّر الحضور. ولا أنسى كيف كان يطيب ويستعيد الخطاب إذا كانت المناسبة مناسبة شعر وأدب. وهكذا رسخ في ذهني أن ذلك الشيخ له موقع ومكانة في عالم الفكر والأدب وضمن أساطين مدينتي وأعيانها.

وكنت مرة، في تلك الحقبة، بضيافة صديق التلمذة محمد الحاج عبد الرسول عاصي في بلدة أنصار (قضاء النبطية)، وفي تلك الزيارة وقعت على إكتشافين: مجلة "العرفان" التي تصدر في مدينتي ولا علم لي بوجودها، وأهمية الشعر ولعبة القوافي بالنسبة لأهل الجنوب. ووجدت في المجلة أيضاً من معارف تهمني كثيراً، أنا ابن صيدا، أنا التلميذ المقاصدي الذي مازال على أعتاب الوعي، وفي ضباب المراهقة. ومع ذلك كنت على علم في ذلك